

إماتة يسوع وحياته فينا

"حاملين في الجسد إماتة الرب يسوع لتظهر حياة يسوع فينا"

السماء والأرض، الحياة الحاضرة والآتية، الضيق والفرح، القريب والغريب، الفرح والحزن، الحق والباطل، كل شيء يندرج في أحد هذين الطرفين عند بولس الرسول على معيار وحيد! إنه يسوع المسيح. السلام للكنايس من بولس يتمّ بيسوع، التوبيخ بروح يسوع، الرجاء بيسوع. الكلّ للكلّ يسوع المسيح.

وهنا الإماتة والحياة ودواعيها وغايتها يسوع. فما هي هذه الإماتة التي إذا حملناها في أجسادنا تصير حياة يسوع فينا؟ ما هي هذه البذرة من الإماتات (الموت) التي نزرعها في أجسادنا المائتة وإذا بها تؤول إلى شجرة حياة؟ يتكلم الرسول عن هذه الإماتة في الآية السابقة مباشرة: "يضيق علينا من كلّ جهة لكننا غير متضايقين. نُحارّ في أمرنا لكننا غير يائسين. نُضطهد لكننا غير مخذولين. نُطرح أرضاً لكننا غير هالكين".

إذا تأملنا في أسرار هذه المعاني الروحية سنكتشف تلك الإماتة -إماتة يسوع- التي نحملها في أجسادنا فتصير حياة يسوع فينا. هذه هي الفضائل الروحية العميقة التي يجب أن تلوّن وتصيغ جهاد المسيحيّ لتصير حياة يسوع فيه.

"يضيق علينا ولكننا غير متضايقين": هذا هو مقدار "الصبر" الكبير الذي تحلّى به بولس، ولينا نتعلم منه: "اقتدوا بي كما أنا بالمسيح". الصبور ليس من يحتمل الصعوبات ومظالم الحياة أو شدائدّها وحسب. هذه معطيات مفروضة على الحياة من طبيعتها، ولا يمكن للإنسان الاستمرار، لا معيشياً ولا نفسياً، دون الحد الأدنى من الصبر. أنّ فضيلة "الصبر" المسيحية لا تنحصر في "الاحتمال"! الصبور هو من تضايقه الحياة من جهات عدة، لكنّه يبقى غير متضايق. لذلك عندما يترافق "الاحتمال" مع الضجر والتأفف والتشكّي والحزن لا يعود صبراً. إن الصبر يأخذ من الضيقات فرحاً. وجه الصبور بشوش. وروح الصابر متعزية بهجة، لأنّ تعزيته وفرحه لهما مصدر آخر غير تقلبات الظروف وتبدل معطيات الحياة. لتلك التعزية مصدر لا يتبدل ولا يتغير، ثابت، إنّه المحبة الإلهية للبشر. لذلك لمؤمن كهذا ما هو ثابت هو

التعزيات الإلهية والبهجة، والضيقات تبقى في إطار المتبدلات، ومجرد ظواهر عارضة لا تمس عمق الحياة ولا تنزع فرحاً من قرار القلب ولا تزرع خوفاً. "يضيق علينا من كل جهة" يقول بولس الرسول. لقد كانت كل المعطيات ضده. أمته، الأمم، الوثنية، العوز، عدم ثبات الكنائس،... الخ. لكنه غير متضيق وإن كان في الضيقات. الجسد في الضيقات لكن القلب ثابت بيسوع وملآن تعزيات. لم يتعرض أحد كبولس لضيقات بمقدار ضيقاته. فلنأخذ من قلبه الثابت في "الصبر الإلهي" مرشداً.

"نُحار في أمرنا لكننا غير يائسين": حين تزداد الضيقات جدّاً ويحاصر الإنسان من كل جهة ويجد نفسه في حلقة من الظلام لا نور فيها، ويرى ذاته عاجزاً عن إيجاد أي مخرج أو ابتكار أي حلّ، هناك يُمتحن "الإيمان" امتحاناً نهائياً. هناك يُمتحن مقدار إيماننا بكلمات الرب يسوع: "ما هو غير مستطاع لدى الناس مستطاع لدى الله". نتراجع لأننا عاجزون أم ننتظر العون الإلهي؟ هل الثبات هنا بلاهة وخطر أم هو حكمة تعتمد لا على المعرفة أو المقدرتين البشريتين وإنما على الإيمان بالعناية الإلهية؟ الإيمان هو "انتظار غير الممكن" وليس الممكنات. الإيمان هو الاعتماد على ما هو بمقدور الله وليس ما هو بمقدور الناس. نعم ستأتي لحظات نُحار بها، ولا مخرج لنا، وتبدو الغلبة فيها للشدة، لكننا سنبقى غير يائسين. يجب أن يتحلّى جهادنا من أجل الشهادة المسيحية في الحياة بهذا الإيمان. إن شهادتنا عكس تيارات الشهوة وتعظم المعيشية التي في العالم. ولا شك أنه بقوانا وبمعرفتنا سنصل مرّات كثيرة إلى طريق مسدودة. هناك لنتذكّر إيمان بولس "نُحار بأمرنا لكننا غير يائسين". دون هكذا إيمان سيعجز المسيحي عن متابعة السير في الطريق الضيقة المؤدية إلى الحياة.

"نُضطهد لكننا غير مخذولين": فإنه وإن عادانا العالم وتغلّبت قواه وجبروته على وهننا، وغضبت مفاصله على بشارتنا بالوداعة والأخلاق، كل هذا لن يخلق فينا خوفاً أو رهبة، لأنّ "رجاءنا" قويّ أن الله لا يخذلنا ولا يتركنا. "الرجاء" يجعل المسيحي يتابع بصدق جهاد مسيرته عكس الرياء في الدنيا. "الرجاء" يعطي للمسيحي اليقين أنه بالتواضع سيغلب تعظم الأقوياء وبالبذل سيخزي طمع الأذنياء، وبالوداعة سيرث الأرض بدل الأقوياء، إنه كسيده الحمل الذبيح الذي سيحكم الدنيا بوداعته! لولا هذا الرجاء لم تكن هناك شهادة وكان التواضع ذلاً والبذل بلاهة والدعة غباوة. لا شيء أكثر وهناً من التعظم ولا أقوى من التواضع. حين يجور تعظم الدنيا على دعة الإيمان، نحن يقينون أن الوديع لا يُترك من الله. فمهما اضطهد جور الدنيا تواضع الحقّ، فالحقّ لا يُخزي لأن الله "لا يترك صفيّه في الجحيم يرى فساداً".

وأخيراً، "نُطرح أرضاً لكننا غير هالكين": لا توجد صورة أوضح من هذه العبارة المستقاة من مشاهد المعارك، التي تعبر عن الانكسار والانقلاب! حين يُطرح المصارع أرضاً أعزلّ ضعيفاً يعني أنه قضي عليه!

لكن مع ذلك وحتى في مشهد لهكذا حالة، لا تظنّوا أننا هلكنّا! إن الله يتركنا نشرب كأس المنون حتّى الرشف الأخير منها، لكنّه يحوّل السمّ الذي فيها إلى حياة. لا بدّ أن نرتشف مرارة الكأس كلّها لكن الموت أو الحياة ليس بيد الناس بل بيد الضابط الكلّ. سننجرع مرّات عدّة المرارة في سبيل البشارة حتّى الجرعة الأخيرة للموت، ويبدو للناس والمنطق أننا هلكنّا، وهذا واقعيّ، لكن هناك واقع آخر، إنّ من مات مع المسيح سيقوم معه بقيامته.

"الثبات" حين تكون المعركة بين المسيحيّ والدنيا في توازن أو في شبه توازن، ليس ثباتاً بالله، إنه ثبات بشريّ، يعارك كلّ إنسان الحياة من أجل وجوده. لكن الثبات، حين نبدو فعلاً هالكين، هو ثباتٌ مبنيّ على حبّ يسوع لنا وليس على أرض مقدراتنا. "المثابرة" حتّى ولو خسرتنا مرّة ومرّات هي أساس الحصاد في أرض نزرعها قمحاً لكن العدو يعود ويرمي فيها زؤاناً. المثابرة في الصلاة، في التوبة، في التواضع ولو بعد فشل مرّة ومرّات، إنها الفضيلة التي تسمح للربّ يسوع أن يهب حياته فينا بعد أن نختبر نحن خبرة الموت من أجله.

مَنْ يُضَيِّقْ عَلَيْهِ يَتَضَيَّقْ، وَمَنْ يَحَارِ بِيئْسُ، وَمَنْ يَضْطَهْدُ يَصِيرُ مَخْذُولاً، وَمَنْ يَطْرَحُ أَرْضاً يُقْضَى عَلَيْهِ، نعم كلّ ذلك صحيح لو كان الله غير موجودٍ أو لا يعتني برسله وتلاميذه. كلّ ذلك صحيح لو كانت معركتنا مع لحم ودم ومن لحم ودم. كلّ ذلك صحيح لو نسينا أنّ "الله معنا" وأنّه "سيبقى معنا إلى انقضاء الدهر"، أو بلغة بولس الرسول، "إنّنا سفراء يسوع في العالم". مهما جار الزمان على الرسول فهذا لا يطال المرسل والرسالة، والسيد رفيق درب وليس مجرد مرسل. فكما انكسر جبروت العالم أمام تواضع يسوع، هكذا سينكر أمام تواضع الرسول، لأنّ المرسل، الربّ يسوع، يمسك باليد ويقود الطريق، وحيث وكما هو سنكون نحن، "ولا عبد أفضل من سيّده".

إذن كلّ ما يبدو، منطقيّاً ودينيّاً وبشريّاً، ضيقة أو مأزقاً أو اضطهاداً أو هلاكاً، هو في عين الصبر والإيمان والرجاء والثبات، بذرة حياة، ليست حياتنا، بل حياة يسوع في أجسادنا المائتة، آمين.